﴿۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أُسقط في أيديهم، شَرَعوا في اعتذارهم، وربَّ عُذْرٍ أقبحُ مِن ذنب

لمّا سبق بيانُ النّظم ممّا وقع مِن جدال ومدافعة بينَ إخوة يوسفَ ﷺ وفتيانِه، آلَتْ إلى تفتيش الأمتعة، ووجدان الصُّواع في رَحْل أخيه، ولمّا بُهتوا بوجوده هنالك، أعقبَه ببيان اعتذارِهم بأن نَسَبُوا أخاهم إلى إمكان حدوثِ السّرقةِ منه؛ إذ قد تسرّبت إليه خصلةُ السّرقة مِن أخٍ شقيقٍ له، غيرِ شقيقٍ لهم، فقد سبق وأن سَرقَ مِن قَبْلُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسَرَّهَا﴾: الإسرار: إخْفاءُ الشَّيْءِ. والسِّرُّ: خِلافُ الإعْلانِ. يُقالُ: أَسْرَرْتُ الشَّيْءَ إسْرارًا، أي: كَتَمْتُه[2]. وأسْرَرتُ الشَّيءَ: أَظْهَرْتُهُ، فهو مِنَ الأَضْدادِ[3]. ﴿فَأَسَرَّهَا﴾: بمعنى: أخْفاها وكَتَمَها.

2) ﴿يُبْدِهَا﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، جَذْرُه (بدو)، وهو أَصْلٌ واحِدٌ، يدلُّ على ظُهُور الشَّيْءِ. يُقالُ: بَدا الشَّيْءُ يَبْدُو: إذا ظَهَرَ، فَهُوَ بادٍ. وسُمِّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذا؛ لِأَنَّهُمْ في بَرازٍ مِنَ الأَرْضِ، ولَيْسُوا في قُرًى تَسْتُرُهُمْ أَبْنِيَتُها[4]، وبَدا الشَّيءُ بُدُوًّا وأَبْدَى: ظَهَرَ[5]. ومعنى ﴿يُبْدِهَا﴾: يُظهرُها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/34.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو).
(5) ابن سيده، المخصّص: (فعلتُ وأفلعتُ).

3) ﴿شَرٌّ﴾: الشَّرُّ: السَّوءُ، والفعل للرَّجلِ الشِّرِّير، والمصدرُ: الشَّرَارةُ، والفِعْلُ: شَرَّ يَشُرُّ شَرًّا وشَرارةً، وقومٌ أشرارٌ خِلافُ الأخيار[1]، والشَّرُّ ضِدُّ الخَيْرِ[2]، وفُلانٌ شَرُّ النّاسِ، ولا يُقالُ: أَشَرُّ النّاسِ إلّا في لُغَةٍ رَدِيئَةٍ، يُقالُ: هُوَ شَرُّهُم، وهِيَ شَرُّهُنَّ، ولا يُقالُ هُوَ أَشَرُّهم؛ وفُلانٌ شَرُّ الثَّلاثَةِ وشَرُّ الاِثْنَيْنِ[3].

4) ﴿مَّكَانًا﴾: اسمٌ جَذْرُه (مكن)، وهو أصلٌ واحدٌ، يدور معناه حولَ رسوخِ الشَّيْءِ مُتَجَمِّعًا في باطنٍ يَلْتَئِمُ عليه[4]. والتَّمكُّن: رسوخٌ في باطن، ومَكَّنَهُ مِنَ الشَّيءِ، ومكَّن له: جَعَلَ له عليه سلطانًا، وقدَّره، والتَّمكينُ مِنَ الشِّيء: إنالةُ ما يَصِحُّ به الفعلُ مِنَ الآلات والقُوَى، ومنه: المَكانة، بمعنى: الرُّسوخ في أثناء الشّيء[5]. والمكانَةُ: الحِيالُ والنَّاحيَة، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام: 135]، أي: على حِيالِكم وناحيتِكم. والمكانة: الطّريقةُ[6]، ومعنى المكان في الآية: المنزلة، ومعناه أيضًا الصّنيع والطّريقة[7].

5) ﴿تَصِفُونَ﴾: الوصف يدلُّ في أصلِه على تَحْلِيَةِ الشَّيْءِ وتهيئته، ووَصَفْتُهُ أَصِفُهُ وصْفًا، والصِّفَةُ: الأَمَارَةُ اللّازِمَةُ لِلشَّيْءِ، يُقالُ: اتَّصَفَ الشَّيْءُ في عَيْنِ النّاظِرِ: احْتَمَلَ أَنْ يُوصَفَ[8]. والوَصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بِحِلْيَتِه ونَعْتِه، والصِّفَةُ: الحالةُ التي عليها الشَّيءُ مِن حِلْيَتِه ونَعْتِه[9]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّـهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]، أي: تُهَيِّئُون أو تُلَفِّقُون مِنَ الهَيئات المُسَوَّاة، وإنْ كانت كاذبةً[10]، ويأتي الفعلُ ﴿تَصِفُونَ﴾ بمعنى: تَكْذبون[11].

(1) الخليل، العين: (شر).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شرر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكن).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/460.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصف).
(9) الرّاغب، المفردات: (وصف).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وصف).
(11) الهرويّ، الغريبين: (وصف).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّسامُحُ والتَّغافُلُ عَنِ الأَذى، والإسْرارُ بِهِ في النَّفْسِ، مِن خُلُقِ الأنبياء

قال إخوةُ يوسفَ: إن يَسْرِقْ فلا عَجَبَ، فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لهُ شَقيقٌ مِن قَبْلِ سَرِقَتِهِ هُوَ، يَعْنُونَ يوسُفَ عليه السلام، فأخفى يوسفُ تأذِّيه بقَوْلَتِهم هذه، ولم يُظْهِرْها لهم، قَالَ لهم في نَفْسِهِ: ما أنتم عليه مِنْ حَسَدٍ وصَنِيْعِ سُوْءٍ سَبَقَ منكم، هو الشَّرُّ بعينِه في هذا المقام، واللّه تعالى أَعلمُ بهذا الافتراءِ الَّذي يَصْدُرُ مِنْكُم، ويُسْتَفادُ مِنَ الآيَةِ: أَنَّ التَّغافُلَ عَنِ الأَذى، والإسْرارَ بِهِ في النَّفْسِ، مِن مَحاسِنِ الأَخْلاقِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل بفعل القول:

حكاية الجوابِ في الحوار، تُفْصَل برواية القول

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ فُصِلت بفعل القول؛ لأنّها جاءت ضِمن الحوار، فلا يحوج ذلك إلى رابطٍ، لقيامِ ترابطِ الحوارِ الحضوريّ مقامَ الرّابط اللّفظيّ، وهي جملة استئنافيّة استئنافًا بيانيًّا، جِيءَ بها جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممّا وقع، فكأنّه "قيل: إنّ انتزاعَ أخيهم منهم بعد تلك المواثيق التي أكَّدوها لأبيهم لَداهيَةٌ تطيش لها الحُلُوم، فماذا كان فعلُهم عندَها؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ﴾ تسليةً لأنفسهم، ودفعًا للعار عن خاصّتهم ﴿إِن يَسْرِقْ﴾"[2]. وجاء الفعلُ مُسنَدًا لضمير الجماعة؛ للدّلالة على أنّهم جميعًا قد قبلوا هذا الوصف وأقرّوه.

سرّ إيثار الشّرط بـ ﴿إن﴾:

بيانُ حُسنِ السّيرةِ، يدفع شبهةَ الفسادِ المثيرة

آثر النّظمُ الكريم إيرادَ حرفِ الشّرطِ ﴿إن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾، الدّالّةِ على الاحتماليّة؛ لأنّهم لم "يجزموا بسرقته، لعلمِهم بأمانته، وظَنِّهم هذا الصُّواعَ دُسَّ في رَحْلِه وهو لا يَشْعُر، كما دُسّت بضاعتُهم في رحالهم"[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/194، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/263، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/178.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/178.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ، رَبَطَتْ رَبطًا تعليليًّا بينَ الجواب والشّرط، فَسَرِقةُ بنيامينَ لا غرابةَ فيها؛ إذ إنّه مسبوقٌ بسرقة أخيه، فعلّقوا سَرقةَ بنيامين بسرقةِ أخيه تعليقًا سببيًّا، وذلك دفعًا لمَعَرّة السّرقةِ عنهم، وعن فرعهم مِن أبيهم.

لا غرابةَ بفساد مَن سبقَ فسادُ أصلِه، فإنّك لا تجني مِنَ الشّوكِ العنبَ

تناوب التّعبير عنِ السّرقة بالمضارع المجزوم، والماضي:

جُمِعَ بينَ الفعل الماضي والمضارع في جملةِ الشّرط، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ السّرقة الحادثة المتجدّدة فرعٌ عنِ السّرقة الماضية المؤكّدة.

الفعل الحادث المتجدّدُ، مُفَرَّع عنِ الأصل الماضي

دلالة (الفاء) في صدر الجملة الفعليّة:

أُدخلت الفاءُ في جملة جوابِ الشّرط، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ لأنّ هذه الجملةَ لا يصحّ أن تكون جوابًا مباشرة؛ لانتفاء الرّابط اللّفظيّ بينهما، فيُصَار إلى بيان ارتباطِهما بالفاء، فالفاء لربط وتعليق الجملتين، وللتّصريح بأنّ السّرقة المحقّقةَ مِنَ الأخ مرتبطةٌ بسرقة هذا الشّقيق، فجُعِلَت قاعدةً يُقَاس عليها.

رَبْطُ جملتي الشّرطِ بالفاء، لخلوّهما مِنَ الرّابط اللّفظيّ، مفيدٌ في البيان

دلالة إدخال (قد) على الفعل الماضي:

أُدخِل الحرفُ (قد) على الفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالة على التّحقيق والتّأكيد، فأخبروا عنِ السّرقة المنسوبة إلى يوسفَ عليه السلام في صِغره إخبارًا مؤكّدًا، لتأكيد نزاهتِهم عنِ السّرقة، وأنّها ليست في فرعهم مِن أبيهم.

تأكيد سرقة الشّقيق، توثيقٌ لاختصاص السّرقة بالأخ دونهم

وجه تنكير لفظ ﴿أَخٞ﴾:

أوثِرَ التّعبيرُ عنِ الأخ بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿سَرَقَ

﴿أَخٌ لَّهُۥ﴾؛ تحقيرًا للأمر، ولجهالة الحاضرين بظنّهم بشأنه[1]، ولأنّ السّرقة ليست ممّا يُشَرَّف بذِكْر فاعلِها، فأعرضوا عنِ التّصريح به، ولأنّ المهمّ عندهم هو الإخبار عن سَبْق السّرقة مِن أخٍ شقيق له، ولا فائدةَ مِن تعيينه.

تحقير فاعل السّرقة، وانتفاءُ الفائدةِ بتعريفه يُوجبُ تنكيرَه

علّة التّعبير بشبه الجملة ﴿لَّهُۥ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾، عبّروا بشبه الجملة مِنَ الجارّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ إلصاقًا لبنيامين به؛ لأنّه شقيقُه[2]، لبيان أنّ "هذا الأمر ليس بغريب منه؛ فإنّ أخاه الذي هلكَ كان أيضًا سارقًا، وكان غرضُهم مِن هذا الكلام: أنّا لسنا على طريقته، ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصّان بهذه الطّريقة؛ لأنّهما مِن أمّ أُخرى"[3]، فخصّصوه بالأخ السّارق؛ إيماءً إلى أنّ السّرقة مِن شأنهما، وأنّ هذه الصّفةَ الشّنيعة تلتصق بهذا الأخ وأخيه، والفائدةُ مِن ذلك تأكيدُ كلامِهم السّابقِ، بكونهم منزّهينَ عنِ السّرقة والإفساد، وأنّ هذا السّارقَ لا يَقْدَحُ بهم؛ فإنّ صفةَ السّرقة لها مثالٌ سابقٌ في شقيقه مِن قبلِه.

تخصيص السّرقة به وبأخيه، تأكيدًا لنزاهتهم

إيثار التّعبير بـ ﴿مِن قَبْلُ﴾:

أُدْخِلَ حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ على الظّرف ﴿قَبْلُ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ لأنّ السَّرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت في زمان ليس بعيدًا[4]، فقالوا: ﴿مِن قَبْلُ﴾ إشارةً إلى أنّ تلك السّرقةَ لا تستغرق زمانَ القَبليَّة كلَّه.

زمان السّرقة المزعومة قريبُ عهد، ولا يستغرق كلّ زمان القَبليّة

دلالة التّعبير بالفاء في ﴿فَأَسَرَّهَا﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ

إسرارُ إجابةِ المسيء، خلقٌ رفيع

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/266 - 267.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/266 - 267.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/490.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/179.

سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وجاء العطفُ بالفاء[1]؛ لبيان أنّ الإسرار أعقبَ ذلك القولَ بلا مُهلة، ولم يَظهر منه ما يُثير انتباهَهم، وهذا خُلُقُ ذَوي الرّفعة، فهُم أقدَرُ النّاس على كَتْم الأذى، دونَ إظهارِ ما يُسِيء لحلمهم.

نكتة تضعيف فعل الإسرار ﴿فَأَسَرَّهَا﴾:

المبالغة في الإسرار تُفصِح عن كظم الغيظ، وتَحَمّل الأذى

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بفعل الإسرار المضعّف في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾؛ للدّلالة على شِدّة كَتْمِه للغضب، فمعنى أنّه أسرّها في نفسه، "أنّه تَحَمّلها ولم يُظْهِر غضبًا منها، وأعرضَ عن زَجْرهم وعقابِهم، مع أنّها طعنٌ فيه، وكَذِبٌ عليه"[2]، كما يدلّ ذلك على أنّ قولهم قد بلغ مِنَ القباحة ما جعلَهُ في غاية الغضب، فكان تحمُّلُه ذلك الغضبَ مِن غير أن يُظْهِر ما يقتضيه، دليلًا على شِدّة إسرارِه وكَتْمِه.

سرّ إظهار الفاعل:

إظهار الاسم في سياق الصّفة الحسنة، ثناءٌ على الفاعل

آثر النّظم الكريم إظهارَ الفاعل دونَ الإضمار، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾؛ ثناءً عليه بهذا الفعل، فهو مِنَ الأفعال التي يُحمَد فاعلُها، فأظهر الاسم تنويهًا بحُسن هذا الفعل وحُسن فاعله، وأنّ مثل هذا الإسرار لا يفعله إلّا مَن أوتيَ حظًّا عظيمًا.

بلاغة الإطناب:

بيان تأكيد الإسرار، ونفي التّبكيت لاحقًا

لم يكتف النّظم في بيان كتمانه بالإسرار، بل عطفَ عليه انتفاءَ الإبداءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ لأنّ الإسرار يدلّ على انتفاء التّصريح بما أسرَّه بالقول، ونفي الإبداء يدلّ على عدم إظهار فعلٍ يدلّ على غضبه، فهو لم يظهر شيئًا، لا بالقول ولا بالفعل؛ صفحًا وحِلمًا منه، وفي ذلك تأكيد لشِدّة

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/39 - 40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/34 - 35.

كَتْمِه وإسراره[1]، كما أنّه "لـمّا كان ربّما ظنّ ظانٌّ أنّه بكَّتَهُم بها بعد ذلك، نفى هذا الظّنّ قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أي: أصلًا ﴿لَهُمْۚ﴾"[2].

دلالة الجزم بـ (لم):

امتدّ زمنُ الكتمان وتطاول، حتّى اجتماعِه بإخوته ثانيةً

جملة: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾ توكيد لجملة ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾، وجزم الإبداء بـ (لم) لامتداد النّفي، وعدم تقييده بالحاضر، فقدِ امتدّ زمنُ الكتمان حتّى لقائِه الثّاني بإخوته؛ لكون نفي المضارع بـ (لم) يدلّ على التّكرار، والتّجدُّد، وتطاول المدّة واستمرارها[3].

إيثار لفظ (يُبدي) على (يُظهر):

الإبداء إظهار بيّن، وهو أليق في نفي إظهار مكنون قلبه

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الإبداء على الإظهار، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾؛ لأنّ أصل الإظهار، يَدُلُّ على قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ، وظَهَرَ الشَّيْءُ: إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ[4]، ففيه قوّةٌ وبُروزٌ، أمّا الإبداء، فيدلُّ على الظّهور البيّن[5]، فنفي الإبداء في الآية، يدلّ على عدم الإظهار البيّن، ومعنى ذلك أنّه لم يظهرها لا بالقول ولا بالفعل[6].

وقد يكون نفيُ الإبداء مرادًا به انتفاءُ الإظهار البيّن، دون نفي أن يكون قد أظهر شيئًا خفيفًا، إشارةً إليهم برفضه مثل ذلك الاحتجاج والقياس. وأيضًا؛ فإنَّ الإعلان عمّا في النّفس يناسبه لفظ الإبداء، لما فيه مِن قُوّة في معنى الإظهار والإعلان، وعزمٍ عليه، تقابل قوّة الإخفاء وشِدَّته، والعزم على عدم إظهاره، بحسب مكان الإخفاء ومدى قدرته على ستر المراد، وليس شيءٌ أخفى ممّا تضمره النّفس وتحافظ عليه، وهذا فيض ممّا يدلّ له قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: 284]، وعادةً ما يقابل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/179.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/193 - 195.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.

الإبداء بالإخفاء في القرآن الكريم، ولم يرد أبدًا مقابلتُه بالإظهار؛ لأنّه الأقدر على مقابلة الأخفى. كما أنّ لفظ الإبداء - أيضًا - قد يحمل معنى المفاجأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: 47]، وعليه فإن قوله ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يفاجئهم بإظهار ما ليس في حسبانهم، إرجاءً له إلى وقت المواجهة والمصافاة، التي أعلنت عنها السّورةُ الكريمة فيما بعد.

بلاغة الطّباق:

إظهارُ صبرِ الأنبياء على تحمّل الأذى

الجمع بينَ الفعلين المتضادّين: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ و﴿يُبْدِهَا﴾، يُظْهِرُ صبرَ يوسفَ عليه السلام على أذى إخوته، بتوكيد الإسرار وعدم الإبداء حتّى يحين أوانُه، وتتحقّقَ غايتُه.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بشبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾:

كَتْمُ الغضبِ عنِ الّذين أثاروا الحفيظةَ، هو موطِنُ الثّناءِ بالكَظْم

علّق النّظم الجليل فعلَ الإبداء بشبه الجملة المتضمّنة ضميرَ إخوته، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، فجعل انتفاءَ الإبداء متعلّقًا بهم على الخصوص؛ لأنّ عدم الإبداء للّذين أثاروا غضبَه، وأساؤوا إليه، هو موطن الثّناء عليه بشدّة الكَتم؛ فمَن أثار غضبَه في نفسه هُم، فيكون إظهارُ ذلك لغيرهم أو نفيُه، ليس ذا فائدة أو دلالة على حُسن خُلُق أو سُوئِه، بلِ الأمر يتعلّق بهم، فإخفاؤه التّأثّرَ بما قالوا أثناءَ قولِهم ذلك، هو المقصود بالثّناء.

بلاغة الاستئناف:

بيان حكاية السّرّ الّذي قاله في نفسه

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ استئنافيّة استئنافًا بيانيًّا، سيقت كجواب لسؤال، "فكأنّه قيل: فما قولتُه التي أسرّها في نفسه؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: مِن يوسف وأخيه؛ لأنّ ما نُسِب إليهما مِنَ الشّر إنّما هو ظاهرٌ لأمر خيرٍ اقتضاه، وأمّا أنتُم ففعْلَتُكم بيوسفَ شَرٌّ مقصود منكم ظاهرًا

وباطنًا"[1]. فهذه الجملة مقولٌ في النّفس؛ لأنّ الإسرار يقتضي عدمَ الإظهار، فهي قولٌ قيلَ في نفسه دون لفظه، فهي تفسيرٌ لِما أسرّه، "أي: قال في نفسه: أنتُم شَرٌّ في مكانتكم ومنزلتكم ممّن تُعَرِّضون به، أو تفترون عليه؛ إذ إنّكم سرقتُم مِن أبيكم أحبَّ أولادِه إليه، وعرّضتُموه للهلاك والرّقّ، وقلتُم لأبيكم قد أكلَهُ الذّئبُ"[2].

دلالة الضّمير ﴿أَنتُمْ﴾:

تعيين المخاطب بالخطاب، تنبيهًا على قصده بالإخبار

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ عنهم بالضّمير المفصول ﴿أَنتُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ لأنّه قصد توجيه الخطاب إليهم تعيينًا لهم بما سيخبِر به، وفيه تأكيدٌ لكونهم كذلك، أي: أنتُم لا غيرُكم.

سرّ تنكير لفظي: (الشرّ) و(المكان):

جناية سرقة الابن مِن أبيه، هي شَرٌّ عظيم، لا يليق ببيت النّبوّة

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بصيغة التّنكير في (الشّر) و(المكان)، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ تعظيمًا لشأن المذكور، فالشّرُّ الذي هم عليه ويتّصفون به لهو شَرٌّ عظيم؛ "لأنّكم أنتُم مَنْ أخذتموني طفلاً لألعب؛ ثمّ ألقيتموني في الجُبِّ؛ وتركتُم أبي بلا مُؤانسة، وأنا لم أسرقْ، بل سُرِقتُ، وهكذا سرقْتُم ابنًا مِن أبيه"[3]، فأيّ شرٍّ بعد ذلك الشّرّ؟! فأنتُم في شرّ ومكان عظيمين.

بلاغة الاستعارة:

وَصْفُ المكانِ بالشّرّ، يفصح عن الشَّرّ الحالّ فيه

استعار النّظم الجليل لفظَ المكان في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، والمراد به الحالةُ والمكانةُ، فأطلقَ "المكانَ على الحالة، على وجه الاستعارة، والحالةُ هي السّرقةُ، وإطلاق المكانِ والمكانةِ على الحالة شائع"[4]، ونسبةُ الشّرِّ إلى المكان دونَ الإخبار عن كونهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/179.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/24.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7032.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/35.

أشرارًا، على الطّريقة المباشرة، أبلغُ في وصفهم بالشّر، فإذا كانت سرقتُهم وحالتُهم أكثرَ شَرًّا مِن سرقات غيرِهم، فهذا يدلّ على المبالغة في كونهم أشرارًا بالذّات والصّفات.

دلالة العطف بالواو:

عـطـفُ الـجُـمَـل يُبيّن أنّها جاءت في سياق واحد

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، معطوفة على قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾، فهي معطوفة على مقولِ القَوْلِ[1]، فتكون كِلَا الجملتين مِن مقوله، وفي الجملة الثّانيَة معنى التّذييل، بمعنى أنّ الله تعالى أعلمُ بصِدقِكم فيما وَصَفْتُم أو بكذبِكم، والمراد: أنّه عالم بشأنهم وكَذِبهم[2].

سرّ التّصريح باسم الجلالة:

التّصريح بلفظ الجلالة يُعَظّم مضمونَ الكلام

آثر النّظم الكريم التّصريحَ بلفظ الجلالة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾؛ تنويهًا بأنّ الله الذي له العلم المحيط الكامل، عليمٌ بما تقولون وتصفون كاذبين[3]، تعظيمًا لشأن عِلْمِه، وقُوّةِ إحاطته.

دلالة التّعبير باسم التّفضيل:

صيغة التّفضيل مـتـجـرّدةٌ للمبالغة، في أوصاف الجليل

عبّر النّظم الكريم باسم التّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أي: "عالمٌ علمًا بالغًا إلى أقصى المراتب، وبأنّ الأمرَ ليس كما تصفون مِن صدور السّرقةِ منّا، بل إنّما هو افتراءٌ علينا، فالصّيغةُ لمجرّد المبالغة، لا لتفضيل عِلْمِه ﷻ على علمهم"[4]، فاسمُ التّفضيل مسلوبُ المفاضلة عند تعلّقه بصفات الجليل؛ إذ لا صفةَ لأحد هي في مكانةٍ بحيث تُقارَن بصفاته تعالى.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/299.

نُكْتَةُ إيثارِ الموصول (ما):

بيـــانُ أنّ عمومَ الأقوالِ والأفعـــال، معلومةٌ لله تعالى، مكشوفةٌ له

عبّر النّظم البليغ باسم الموصول (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، وصلته الجملة الفعليّة مِن الفعل والفاعل ﴿تَصِفُونَ﴾، والعائد محذوفٌ، تقديره: بما تصفونه[1]، ودلّ التّعبير بـ (ما) على العموم، فالمعنى: أنّ اللّه تعالى يعلم عمومَ ما تقولون وما تكذبون، ولا تخفى عليه منكم خافية.

دلالة الفعل ﴿تَصِفُونَ﴾:

الكلامُ الحامِلُ دليلَ كونِه كذبًا، يُطْلَق عليه أنّه وَصْفٌ لا كلام

عبّر النّظم الكريم بالفعل (يصف) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، مُطْلِقًا إيّاه على الكلام الذي أَجْرَوْهُ على لسانهم" أي: إنّه سبحانه أعلمُ بما تنعتون، وتظهرون مِنَ العلامات والسِّمات، وغُلّبت كلمةُ ﴿تَصِفُونَ﴾ على الكلام. ومثالُ هذا هو قولُ الحَقّ سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ [النحل: 116]، أي: أنّ ما تقولونه يُوحِي مِن تلقاء نفسه أنّه كَذِبٌ، وهكذا نعرف أنّ كلمة (تَصِف)، وكلمة (تصفون)، غُلّب استعمالُهما للكلام الذي يحمل معه دليلَ كَذِبه"[2]، فَجَرّدَ مقولهم مِن كونه كلامًا إلى كونه وصفًا؛ لما في قلوبهم وظنونهم، وهذا إشارةٌ إلى أنّه كذبٌ لا صِحّةَ له في الواقع.

وجه جمع الفعل وصوغِه مضارعًا:

بيـان أنّ اللـه يعلم ما يصف جميعُهم، على الدّوام

التّعبير بالمضارع ﴿تَصِفُونَ﴾ فيه دلالةٌ على دوام علمه تعالى بما يصفون، وإن استمرّ وتطاوَل. فُرادى كانوا أو مجموعين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أبدى وأظهر وأعلن:

بَدَا الشّيء بُدُوًّا وبَدَاءً، أي: ظهر ظهورًا بيّنًا[3]، والإعْلانُ:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/73.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7033.
(3) الرّاغب، المفردات: (بدا).

المُجاهرة[1]. وأعلنته أنا، إذا أظهرتُه[2]. والظُّهور أَصْلُه يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا، فَهُوَ ظَاهِرٌ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ[3]. وفي الآية عبّر عن نفي الإبداء لبيان انتفاء الإظهار البيّن، فكأنّه أظهر شيئًا خفيًّا، إشارةً إليهم برفضه مثلَ ذلك الاحتجاجِ والقياس.

الإبـــداء هـو الإظـهـار البيّن، فـهـو أخـصّ مِـنَ الإظـهـار، والإظهار مطلق الكشف

(1) ابن منظور، اللّسان: (علن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (علن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»